خصائص الفن الاسلامي

-٢-

لريتشارد ايتنجهاوزن[1]

سار التمويه في أشكال الزخارف جنباً إلى جنب مع مميزات الفن الاسلامي وهو اظهار الأشياء في غير حقيقتها أو عكسها فتظهر إما متداخلة أو تحور الحيوانات إلى زهور أو إلى فروع نباتية ملتوية (أرابسك) أو تظهر الخطوط الهندسية الدائرية مستقيمة أو العكس ، فمثلاً العقاب المرسوم على صحن من الخزف والمحفوظ في متحف اللوفر لا يظهر على شكل حيوان منبسط ذو ريش معدني فحسب بل ترى هذا الحيوان تحوّل ذيله إلى شكل نباتي ينتهي بأرابسك ويتسلسل من منقاره فرع نباتي . ومن أهم التحف المميزة للفن الاسلامي ذلك الطبق المشهور بنسره الذي اكتشفه العلامة هرتسفيلد في سمرا فلا يظهر الطائر مجرداً أو مطليًا بريش معدني وإنما يتحوّل في بعض أجزائه إلى شكل نباتي على أرضية عميقة . وفي هذا المثل يصير الرسم شكليًا . وإذا قلب إلى أعلى اتخذ شكل ورقة نباتية كبيرة مسننة محوّرة ، وتذكرنا هذه الظاهرة بالحالة التي كان عليها التصوير الفوتوغرافي وذلك من سؤال وجهه أحد المصورين الفرس إلى الفقيه ابن عباس عام ٦٨ هـ وقد عاش هذا المصوّر في وقت لم يكن التعصب نحو تحريم التصوير ظاهر فيه فقال أيمسك الانسان عن رسم الحيوان ، وكيف يحصل على معاشه إن أمسك ؟ فأجابه ابن عباس أنه يستطيع أن يرسم الحيوان بعد قطع رءوسها وتحويرها تحويراً نباتيًا — وفي دار الآثار العربية قطعة من الخشب الفاطمي حفر عليها رسم حصانين على شكل أرابسك (شكل ١) ، وهناك آلاف

---

(١) مترجم من كتاب الادب العربي الجديد حتى وآخرين طبع مطبعة جامعة برنستون بنيوجرسي سنة ١٩٤٤

الأشكال التي تحورت فيها الرسوم الهندسية المستقيمة إلى خطوط دائرية بشكل متناسق.

وهناك رسوم لوحدات زخرفية مستقلة يمكن أن يكون كلٌّ منها شكلاً تاماً بذاته لكن الفنان المسلم يمكن أن يستغل هذه الوحدة الزخرفية، فأعاد رسمها بجوار بعضها بشكل غير محدود وهذا التكرار أدّى إلى أهم مميزات الفن الاسلامي ومنها رسوم الأوابيك الغير متناهية (شكل ٢) والأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع وينتمي إلى هذه المجموعة الخيرانات السلجوقية، المتتابعة على أرضية نباتية لا نهاية ولا بداية لها، وتوجد خاصة أخرى في أمثلة كثيرة وهي ظهور الجامات على جلود الكتب والسجاجيد وتدل أرباع الجامة أو المنطقة المرسومة في الأركان سواء أكانت شبيهة أو غير شبيهة بالمنطقة الوسطى أنه كان يمكن رسمها في كل اتجاه لولا أن الأطار الخارجي حدد الجزء المطلوب رسمه منها.

* * *

أدّت احدى نتائج البحوث في الفن الاسلامي إلى محاولة الفنانين رسم الكائنات الحية ذات الأبعاد الثلاثة بطريقة غير واقعية. وكان استعمال البريق المعدني ظاهرة واضحة في هذا الميدان. ووجدت طرق أخرى لاظهار الشيء على غير حقيقته. وقد أشار العالم ماسينو إلى أهمية هذه الظاهرة في الفن الاسلامي الذي امتاز بالتغير الدائم حيث لا دائم إلاّ الله ولا يتحقق دوام الله إلاّ بتغير الأشياء. وتدلنا قصة سيدنا ابراهيم على كيفية استدلاله على وجود الله ودوامه عندما رأى النجوم والشمس والقمر في تغير دائم — وهذا أول دليل على بقاء الله؛ ويمثل هذا الاعتقاد في الدين الاسلامي والفن معاً. والدليل الحي على ذلك ما نجده على شواهد القبور وفي ضريح الغازي الكبير تحور في شريط الكتابة الكوفية الرئيسي كلمة «الله البقاء».

ونجد أثر هذه الظاهرة في استخدام بعض المواد كالجص والطين واللبن والصوف وغيرها ليس لغرض الترهد وعدم التبذير وإنما لشعور الفنان بأن كل شيء في هذا العالم وخاصة ما تنتجه يده من صناعة ما هو إلاّ زوال

وكان لابتكار العلاقة السببية للامور الدنيوية أثر كبير ليس فقط في العقائد الدينية حسب وانما في الناحية الفنية أيضاً. فقد حصلنا بدلاً من الظواهر الطبيعية على اعتبارات

عادية للأشياء نتيجة خلق مجموعة أغصان كرمية تشكو وتلتفها بصورة رمزية ذرة الزمنية ، فتطرت الزخارف شطراً فرضيًا الى وحدات صغيرة ورسمت بحرية مكنت الفنان من تغييرها أو رسمها رسماً معكوساً .

ولا توجد ثمة علاقة بين هذه الجزئيات والمنظر العام الذي شعرت منه كما هو رائع في سجادة تنويج ملك في القرن(١٦) فكل جزء منها مستقل عن الآخر وتظهر هذه الصفة جلية في الجرة ذات البريق المعدني التي في مجموعة الدكتور عرش أو المنظر الموصل المعدني المشهور في مجموعة بلاكاس في المتحف البريطاني حيث لا توجد علاقة مباشرة بين كل منها ووحداته الزخرفية الصغيرة . ويناظر هذا الاتجاه الذري اتجاه آخر صادفناه في الأدب من مقامات الحريري حيث لا ترتبط كل مقامة بالأخرى في المعنى — ولكنت تعددت هذه المقامات التي تبلغ الخمسين ومن الممكن زيادتها — وعلاوة على ذلك لا يوجد لكل مقامة مكان خاص في الكتاب وإنما ترتبط بينها شخصيات أبو زيد والحارث بن همام ، كما أن الملك في جرة بلكاس هو الحلقة الرابطة في الصورة التي عليها .

وقد أسفر التحليل الدقيق لخصائص الفن الاسلامي على اختلافه عن طرق أمكن بها التغلب على الصعوبات التي واجهتها . فرسمت جميع الأشكال رغم تحريمها . ومع ذلك بقي سؤال واحد هو هل لم تتبق ظاهرة فنية واحدة استحدثت لم يشملها التحريم؟ تقودنا الاجابة على ذلك الى شكل آخر له صفات ومميزات ايجابية ويمكن تسميته في الفن الاسلامي « الطرز المختلفة للكتابة العربية » وقد استخدمت هذه الظاهرة الفنية الكتابة العربية التي يحتلها القرآن الشريف وهو النسخة العربية من الكتاب المقدس وهو معبر الوحي ، وهو لا يتقلد وهو أزلي غير مخلوق . واستخدام آيات منه كبيرة أو صغيرة داخل المساجد أو بعض المباني المختارة أو على بعض قطع كبيرة احتل نفس المكانة التي كانت تستخدم فيها بعض النصوص القديمة المقدسة وخاصة فيما يتعلق بحياة المسيح في العالم المسيحي . وهو زي ما في الاسلام من تجديد ووحدة ما في المسيحية من تعدد واختلاف الوحدات .

وتظهر الكتابة العربية كنوع من الزخرفة الاسلامية في أروع المباني الأثرية وأعظمها

فقام الفنانون الأميون بتكرار بعض الخروف الهجائية بقصد الزخرفة على النوع الثاني — أما النوع الأول فإننا نجده ممثلاً في مسجد أو مدرسة سلجوقية حيث كتب الخط الكوفي الكبير الحجم على طول الجدران الأربعة الداخلية أسفل منطقة الانتقال من المربع الى القبة كما تفصل بين الأدوار الزخرفية والمعمارية المتنوعة في كل من النصف السفلي والعلوي من المربع والقبة. ويمتد هذا الخط على الأبنية الفاطمية كواجهة جامع الأقمر حيث يحيط شريط الكتابة الكوفية المحاريب المعمارية التي تملأ واجهة المسجد وفي كلا النوعين يُضفي شريط الكتابة على المباني وحدة واعتدالاً بصفة عامة.

ومن الواضح أن الكتابة العربية خير ما يناسب المحاريب من الزخرفة على أن يراعى عند تغطية هذا الجزء المقدس بتربيعات القاشاني ذات البريق المعدني أن تكون الكتابة الكوفية زرقاء قاتمة وبارزة حتى تظهر واضحة على هذه الأرضية ذات الزخارف والبريق المعدني فلا يتغير شكلها، وفي هذه الحالة يجب أن يظهر لفظ الجلالة كما يجب أن يحافظ على شكله من تداخل بعض العناصر الزخرفية النباتية والهندسية والأرابسك على توائمه حتى لا تطغى عليه فتقلل من وضوحه، وتعذر منذ عهد الميروفنجيين Merovingian استعمال الكتابة بأشكالها الآدمية والحيوانية في الغرب وخاصة على المعادن.

وتفسر الصورة الانسانية على أنها تقليد للخط العربي، فأوضح محمد الهيتمي في كتابه «هداية المحبين» أن الله خلق الانسان شبيهاً باسم محمد بالخط الكوفي فخلق الله آدم وشبهه بحروف من إسمه فالرأس كالميم واليدين كالهاء والبطن بالميم الثانية والقدمين بالدال.

وتبعاً لاتساع رقعة البلاد الاسلامية كان من الطبيعي أن تكون لبعض هذه الممالك مميزات وطابع اسلامي فني خاص وخاصة بعد الحركة الانفصالية التي أعقبت تقسيم الخلافة العباسية الى وحدات صغيرة.

تحررت فارس من القرن ١٣ الى ١٦ وبرزت في فنها محاولة خطية صوفية في صورها المتنوعة، وليس أدل على ذلك من توضيح المنظومات الخمس لنظامي بالصور ورسم الأفراد والأميرات وحولهم الأتباع في مناظر طبيعية ساحرة ومواقف جميلة رائعة وتبدو خطاطة في الصورة في عالم سحري ممزول تتقدمه جدول ماء والى الخلف منهم منظر جبلي وفي

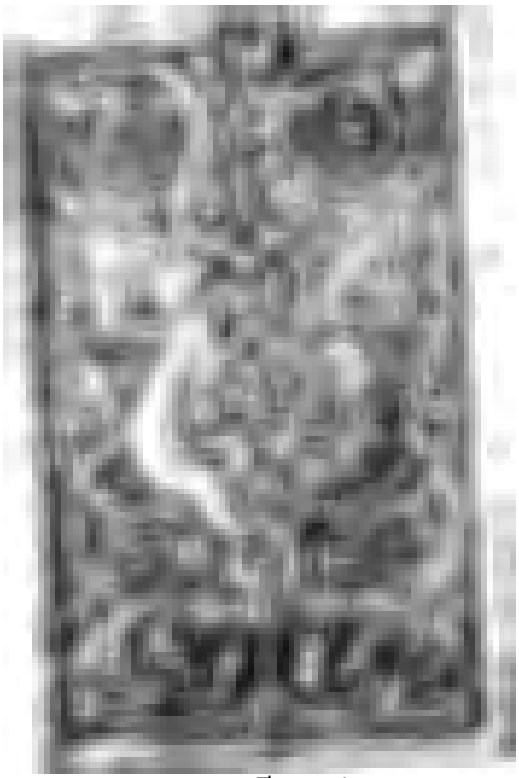

ش ١ — حشوة خشبية بدار الآثار العربية من العصر الفاطمي
تاريخها القرن التاسع

ش ٢ — فروع نباتية ملتوية وأوراق نباتية تعرف بالأرابسك

المحاولات التي تحاذر فيها الفنان من القيود السابقة وجد سعادة كبيرة تملأ مشاعرها لجنة وحبوريتها بين منجيرات خضراء جميلة وحدائق من زهور منثورة في الصحراء . وتختلف هذه المناظر عما نجده في مصر . ففي العصر الأيوبي والمملوكي اكتمل نمو الفن والصناعة التي تمثل مظاهر الحياة الإسلامية والروحية والسياسية فنجد المدرسة أهم المباني الأثرية في هذا العصر ويشغل أبرجوه فيها ضريح السلطان الذي أنشأه قبل موته واستعملت في زخرفته مواد أكثر سلاسة كالرخام بدلاً من الجص الذي كان شائعاً في ايران . وأهملت صناعة القطار في هذا العصر لاستعمال الفيروز للكتابات بدله . وإذا استعمل الطوب فانما نجد النوع الأسود تقليداً للأواني المعدنية المحفورة . وتبرز الوحدات الهندسية والمتعددة الأضلاع في الزخرفة وتحل محل الطرز النباتية الايرانية الرشيقة الملائمة للحياة التي كانت سائدة هناك .

هذا الاختلاف الاقليمي بين الشعوب يدل على اختلاف وجهات النظر الاسلامية في كل منها ، ومهما كان هذا الاختلاف بين هذه الأقاليم فانه يسود الجميع طابع اسلامي عام دائم لا يتغير .

ولم يؤثر احتكاك العالم الاسلامي بأوربا في المظهر الأساسي للفن الاسلامي إلا نادراً جداً وإن أي تغيير في المظاهر الأساسية للاسلام كما حدث عند ترجمة القرآن إلى لغات غير عربية وحروف غير حروفه المنزلة وجه الفن الى محاكاة الطبيعة وأدخل التصوير في المساجد وعلى صناديق الأقلام وغيرها وابتعد الفن الاسلامي عن أصوله التي نشأت معه واصطبغت بصبغة جديدة خطيرة .

محمد مرسي احمد
دبلوم في الآثار الاسلامية

---

* استدراك — جاء في منتطف شهر مارس ١٩٤٨ في مقال خصائص الفن الاسلامي

الصفحة	السطر	ما صححته
١٨٩	٥	بلغة كالرّ
»	٩	خاوند
١٩١	٤	أن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله
١٩١	١٥	أصبح
١٩٢	٦٠	تكررت الكلمات الآتية (عن حفل عرس) مصور وتضمنت المكتب المقدسة الاسلامية)
١٩٢	١٣	الفن
١٩٣	٩	بيرونسك